

سباحة في رياض الفد الخليلي

محمود محمد النافع

سياحة في رياض الفكر الخليلي بقلم محمود محمد الناكوع

عمان أول بلد عربي تشرق عليه الشمس، أي أنه أقصى تراب عربي ومياه عربية من جهة الشرق، ولعل هذا البعد الجغرافي قد حرم كثيرين من العرب من معرفة ذلك البلد وما فيه من أعلام وأقلام وتراث. ولعل هذا البعد قد حرم المثقف العربي بالذات -إلا قلة- من التواصل مع أعمال وإبداعات أهل العلم والفكر فيه، وليس البعد الجغرافي وحده هو السبب في ضعف روابط التواصل الثقافي بين الشعوب العربية وكتابها وشعرائها ورواد الفكر والعلم فيها، لكن الأسباب أكثر من الأبعاد المكانية والتضاريس الجغرافية وأهمها ذلك التخلف الفكري الذي يضيق بالكلمة وبالكتاب وبالمقالة وبالصحيفة فيسد أمامها الطريق تحت حق الرقابة وما أدراك ما الرقابة وما تفعله من حصار ضد الفكر، حيث لا يسمح له بالمرور والتدفق عبر الحدود بيسر وسهولة، وبذلك تحولت الأقطار إلى جزر ثقافية تكاد تتنكر لأصلها ومنبعها الواحد وهو منبع الثقافة العربية الإسلامية الواحدة، حتى صارت حركة الفكر وتياراته من بلد عربي إلى آخر تصد بحواجز كثيرة ومعروفة. وما يهون من هذا الأمر وعواقبه في وقتنا الحاضر ما وصلت إليه الاختراعات العلمية من وسائل حديثة تجعل التنقل والسياحة ممكنة وسهلة إلى حدود كبيرة. والسياحة في عالم اليوم يمكن أن تكون حركية جسدية على متن الطائرات، ويمكن أن تكون عبر هذه الصناديق العجيبة المليئة بالعوالم الكونية صوتا وصورة وحرفا ومنها التلفاز والشبكة العنكبوتية الإنترنت. ومن بيتك تستطيع أن تتجول في العالم عبر أوقات قصيرة لتعرف الكثير، وهي وسائل لا تحتاج إلى تأشيرة دخول. وعبر هذه الشبكة العجيبة المسماة (الإنترنت) سأطلق بكم إلى سياحة في رياض الفكر الخليلي العماني وأعنى به فكر سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان. ربما يعرفه البعض من خلال الفضائية العمانية التي يطل منها في أحاديث وفتاوى متتالية، وربما يعرفه آخرون من خلال المؤتمرات الإسلامية التي يحضرها ويشارك فيها.

وسياحتنا معه ومع فكره وبعض أعماله في هذه المقالة ستكون بصورة خاصة مع وقفات قصيرة في رياض مختارات من كتبه، فأنا ما زلت أعتبر الكتاب هو أجمل وأفضل وسيلة معرفية، وهو الروضة التي أرتاح لأشجارها وظلالها وأزهارها وثمارها، وهو الصديق الحميم عندما يقل الأصدقاء لتغير الزمان والمكان والأحوال، أو عندما يتخطفهم الموت، فيظل الكتاب أوفى وأعز الأصدقاء.

في مكتبي الصغيرة بلندن تحتل مجموعة من كتب الشيخ الجليل أحمد الخليلي موقعا معتبرا ومنها:

١. جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل. وقد صدر منه حتى الآن أربعة أجزاء. وكل مجلد من هذه المجلدات الأربعة يشكل روضة جميلة لما فيه من علوم غزيرة ولغة فصيحة تثرى ثقافة القارئ والمتلقي، وأكثرها متعة عندي المجلد الأول الذي تناول عدة مقدمات تحت عناوين متميزة هي في ذاتها تدل على اتساع الآفاق العلمية والفقهية واللغوية التي يتمتع بها شيخنا صاحب (جواهر التفسير).

ومن تلك العناوين ذات الدلالات العلمية المهمة:

- التفسير ومسالك المفسرين
- التفسير لغة واصطلاحا
- الفرق بين التأويل والتفسير
- شروط المفسر
- مصادر التفسير
- أطوار التفسير
- طبقات المفسرين
- الحركات الإصلاحيّة وأثرها في التفسير
- ثبوت الإعجاز القرآني.

كل عنوان من هذه العناوين يؤلف روضة غنية ثرية تشد العقول والألباب، وتحرك المشاعر والوجدان، وتحمل قدرات تجديدية إضافة إلى قدرات الفهم والاستيعاب لما سطره القدماء والمحدثون من آراء واجتهادات.

وعبر هذه الرياض القرآنية ينتقل بنا العلامة الشيخ أحمد من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ومن مفسر إلى آخر، وبذلك يضع أمامنا مشهدا متكاملا لحركة العقل الإسلامي وتعامله مع النص القرآني منذ عصر التابعين إلى الوقت الحاضر، ويكشف لنا عن الجهود الضخمة والهمة العالية التي خدمت القرآن الكريم من جميع النواحي، وبها أدلى أهل الاختصاص بما لديهم من آراء وحجج وبراهين فيما ذهبوا إليه من طرائق ومناهج في التفسير. وكل هذه الأعمال وما مرت به من نقاشات وتطورات إزاء النص القرآني أكدت ثراء العلوم الإسلامية التي تمحورت حول الجملة القرآنية. كما أكدت حرص علماء الأمة على النهوض بواجب تفسير ذلك النص العظيم بما يتلاءم مع كل عصر من العصور وما يحصل للعقل من مكاسب معرفية

جديدة، وهو ما يدل على حيوية الأمة عندما تكون في حال من اليقظة والقدرة العلمية المولدة لأسباب الدفع الحضاري. ونلاحظ أن الشيخ أحمد الخليلي لا يسلم بكل آراء المفسرين قديما وحديثا، ولكنه يقف منهم جميعا موقف الدارس المتأمل والناقد لبعض ما ورد في تلك التفاسير من ناحية اللغة أو من ناحية المضمون، كما نلاحظ أنه متمسكا بخط الاعتدال والوسطية حيث يقول أنه مع: (المنهج المعتدل ص ٤٢..... والمسلك الوسط ص ٤٣). ومن كتبه الأخرى التي أسعد بمراجعتها والتوقف عند آرائها ومعالجاتها لمسائل عصرية متعددة:

٢. مجموعة من مجلدات الفتاوى، وجميعها تؤكد على عقلية عصرية مستنيرة متفاعلة مع تطورات العصر وعلومه وإنجازاته. ومع أن الشيخ أحمد الخليلي من أبرز فقهاء المذهب الإباضي في الوقت الحاضر، فهو منفتح على المدارس الفقهية الأخرى، وهو من دعاة التحرر من التعصب والجمود، ومن السهل أن تلمس ذلك في أعماله وكتبه ومنها كتابه (إعادة صياغة الأمة) الذي حذر فيه من الفرقة والتنافر، وحث فيه على الوحدة، والاعتصام بحبل الله ص ١٩٨ و ص ١٩٩. وهو كذلك يدعو الأمة إلى استقلالية الفكر والبناء، مع الاستفادة من كل التجارب الصالحة من ص ٢٩ إلى ص ٣٧.

ومن رياضته الفكرية الجميلة كتابه:

٣. "البناء الحضاري للإنسان" وهو عبارة عن محاضرة قيمة، وفيه يستنهض الأمة الإسلامية نحو الرقي والتقدم والأخذ بأسباب الحضارة، ويؤكد في مادته على تنمية العقول، وتوظيف الطاقات توظيفا صحيحا، ويضرب أمثلة باليابان التي لا تملك مصادر للغنى والثروة إلا مصدر الإنسان وطاقاته العقلية، فيأحسن الارتقاء بالقوة البشرية يمكن للعالم الإسلامي أن يكتشف سنن الحياة وقوانينها ويمكن له أن يساهم إيجابيا في ميدان التفاعل الحضاري، وأن يتحرك إلى الأمام برؤية قائمة (على الاستقلال في الفكر والسلوك والأخلاق والمعاملات ص ١٨).

وللشيخ أحمد الخليلي خاصية قلبية نفسية أكثر روعة وأشد تأثيرا لمن يعرفه عن قرب، وهذه الخاصية هبة يؤتيها الله لمن يشاء من عباده، وهي خاصية التواصل، فعندما تجلس معه وتتجاذب الأحاديث تحس بالأنس والمودة والانشراح، وتلك علامة من علامات التواصل لا نجدها عند كل العلماء.

لعلي بهذه الأسطر القليلة، وعبر هذه السياحة القصيرة جدا قد صورت بكلماتي المتواضعة مناظر من تلك الرياض العلمية الفكرية الخليلية، وهي رياض مائعة للعقل والروح. ولا بد أن أشير هنا إلى أنني لست من أهل هذه العلوم، وبضاعتي منها قليلة جدا، ولكنني أحب القراءة، وأتذوق أشياء من مادة قراءاتي وأنفعل بها، وأترك ما لا أتذوقه. وختاما:

الله أسأل أن يعطي صاحب هذه الرياض الفكرية الممتعة مزيدا من الصحة والقوة والصبر حتى يكمل تفسيره للقرآن الكريم، وأن يختم أعماله ورياضه هو ومن يساعده من تلاميذه بالانتهاء من هذا الكسب العظيم، وأن يجعله في ميزان حسناته، إنه تعالى على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

محمود محمد الناكوع

كاتب من ليبيا مقيم في لندن